كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع؟

المشكلات المزمنة تجتاح العالم الإسلامي كله:

لا ينكر عاقل أن وطننا العربي الكبير من الخليج إلى المحيط، وأن وطننا الإسلامي الأكبر من المحيط الهادي ـ شرقاً ـ حيث جزر أندونيسيا المسلمة إلى المغرب والسنغال على شاطىء الأطلسي ـ غرباً ـ ومن روسيا الآسيوية ـ شمالاً ـ إلى أواسط أفريقيا ـ جنوباً ـ يعانيان مشكلات متعددة متنوعة: مشكلات مادية وإنسانية، داخلية وخارجية، مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية.

وكلها تتطلب الحل، والحل الحاسم السريع. فإن مرور الأيام لا يزيدها إلاَّ تفاقماً واستفحالاً، كالداء الخبيث الذي يتضاعف خطره، كلما تأخر علاجه وربما أدّى إهماله إلى تمكّن الداء، واليأس من الشفاء.

إن أجزاء كثيرة من هذا العالم الفسيح تشكو من سيطرة الأجانب ـ غير المسلمين ـ على أرضها، وتحكمهم في أهلها، كفلسطين وكشمير، وأريتريا والحبشة وقبرص وبخارى وسمرقند وغيرها من ديار الإسلام.

والأجزاء الأخرى من هذا العالم تشكو من هذا التمزيق العجيب والتجزئة المفتعلة، والحواجز المصطنعة، التي جعلت من الأمة الواحدة ـ كما رضي الله لها ـ أمماً ودولاً ـ كما شاء الاستعمار يجافي بعضها بعضاً، بل يضرب بعضها وجوه بعض. حتى لترى بعضهم يقف مناصراً لأعداء المسلمين ضد المسلمين، استجابة لنعرات جاهلية، أو خضوعاً لسياسة استعمارية غربية أو شرقية.

والناس داخل هذا العالم الإسلامي يشكون ويتوجعون: الكبير يشكو والصغير يشكو، والمثقف يشكو، والأمي يشكو، والطبقات كلها تشكو، والشعوب كلها تشكو.

أجل تشكو شعوبنا تخلفاً في العلم، وتخبطاً في السياسة، واضطراباً في الاقتصاد، وتفككاً في الاجتماع، وتدهوراً في الأخلاق، وبلبلة في الأفكار، وزعزعة في العقائد، وضعفاً في التربية، وخواء في الروح، واختلافاً في الصفوف: اختلافاً على الغايات والأهداف، فضلاً عن الوسائل والطرائق.

وقد كشفت النكبة الأخيرة[1] ـ التي يخفف بعض الناس من مرارة وقعها فيسمونها «نكسة» ـ عن هذا الفساد العريض، والانحلال المتغلغل في كيان الأمة، والضعف الكامن في كل جوانبها. وعادة الجسم العليل أن تبرز كوامن علته لأدنى وعكة تصيبه، فتخور قواه، وتنهار صحته، ولا يجد قدرة على الصمود والمقاومة لأضعف «الميكروبات»، وإن كان في ظاهره غنياً باللحم والشحم.

أين الحل؟

والسؤال الآن، الذي يجول في كل فكر، ويجري على كل لسان، ويتحدث به كل منتدى: ما العلاج الناجع لهذه الأدواء المزمنة؟ وما الحل الحاسم لهذه المشكلات جميعاً؟

إن اليأس من وجود حل حاسم ومن دواء ناجع، والاكتفاء بالحوقلة والاسترجاع، وإبداء الأسف ـ الشديد ـ على ما انتهت إليه حال العرب والمسلمين، دون البحث عن الحل، والتفتيش عن العلاج ـ إنما هو هروب من الواقع، وفرار من الزحف، ومناقضة لطبيعة الإيمان، التي لا يعرف اليأس إليها سبيلاً ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(١) نكبة ٢٥ صفر سنة ١٣٨٧ ـ ٥ حزيران ـ (يونية) ١٩٦٧.

لقد علمتنا تجاربنا وأمثالنا: أن «كل عقدة لها حلّال» وعلمنا ديننا ونبيّنا: أن الله ما خلق داءً إلاَّ خلق له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله. وهذا يطبق على الأدواء المعنوية، كما يطبق على الأدواء الحسية، لهذا كان لزاماً على كل ذي رأي وفطنة، وكل ذي علم وخبرة، أن يتقدم بما عنده من حل، وما لديه من علاج، حتى نرى أي الحلول أجدى وأنجع، وأليق بنا وأولى.

الحل الطبيعي والحلول المصطنعة:

والحلول التي تقوم في عالمنا العربي والإسلامي، لعلاج أدوائنا المادية والمعنوية، وللتخلص من التناقض والعقد التي يعانيها هذا الجيل في حياته الفكرية والروحية والاجتماعية: ـ نستطيع أن نحصرها في حلول ثلاثة:

١ ـ الحل الإسلامي القرآني.
٢ ـ الحل الديمقراطي الليبرالي.
٣ ـ الحل الاشتراكي الثوري.

ولك أن ترد هذه الحلول الثلاثة إلى: حلين اثنين:

الحل الطبيعي، والحل المصطنع.

والحل الطبيعي هو الحل الأصيل النابع من ضمير الأمة وعقيدتها وتراثها، وذلك هو الحل الإسلامي.

والحل المصطنع هو الحل الدخيل المستورد من أرض غير أرضنا، وقوم غير قومنا، وذلك هو الحل المأخوذ عن الغرب، بشقيه: الديمقراطي الرأسمالي والاشتراكي الماركسي.

كيف دخلت الحلول الأجنبية المصطنعة بلادنا؟

أما كيف دخلت الحلول المصطنعة بلادنا أو كيف صار لها دعاتها وأنصارها؟

وكيف طاردت الحل الأصيل في عقر داره؟ وكيف تبنتها أحزاب وحكومات؟ فإن لذلك تاريخاً طويلاً نكتفي منه بما يأتي:

لقد عاش العالم الإسلامي ـ نحو ثلاثة عشر قرناً ـ ملتزماً بمبدأ واحد، ومنهج واحد، لا يحتكم إلاَّ إليه، ولا يعول إلاَّ عليه، ولا يستفتي في شؤون حياته وما بعد حياته غيره، ولا يفكر في حل لمشكلاته إلاَّ على أساسه وبالاستمداد منه، ذلك المبدأ وذلك النظام هو الإسلام، الذي ارتضته هذه الأمة، وارتضاه الله لها وأتم به عليها نعمته ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وكانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذي اعتنقته والنظام الذي اتبعته، هو سر قوّتها، وينبوع سعادتها، وصانع حضارتها، ورافع ذكرها في العالمين، وأن كل نصر أحرزته، وكل خير أدركته، إنما هو بسر الاستمساك بعراه، والاهتداء بهديه، وأن كل ضر أصابها، وكل ذل ركبها، إنما هو بسبب التفريط في هذا المبدأ والبعد عن تعاليمه، لا يختلف في هذه القضية اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان، كما يقال.

لم يفكر حاكم من الحكام طول هذه القرون الثلاثة عشر أن يرفض الالتزام بمبدأ الإسلام، والاحتكام إلى شرعه، وإن بلغ في الاستبداد والطغيان ما بلغ. ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يوماً ما نظام غير نظام الإسلام، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الإسلام.

كان الاعتزاز بهذا المنهج أو هذا النظام جزءاً من عقيدة كل فرد مسلم كان يغالي به ويزهى، ويعتقد أنه وحده الحق، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ كان يؤمن أن في هذا النظام لكل داء دواء، ولكل معضلة علاجاً، ولكل عقدة حلاً، وإن علاجه لا يدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم، أو يستمدونه من أديان منسوخة محرفة، انقضى زمنها وانتهت مهمتها.

كان كل مسلم يعتقد أن «الحل الإسلامي» لمشكلات الحياة هو الحل الفذ،

---

(١) المائدة، آية ٣.

والحل الناجع، لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم، وهو بهم بر رحيم، كما أنه بهم عليم خبير ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

الزحف الغربي على العالم الإسلامي وتأثيره:

كان هذا الاعتقاد هو السائد في العالم الإسلامي، حتى كان هذا القرن الأخير والذي قبله، حيث واجه الشرق الإسلامي زحف كثيف من العالم الغربي المسيحي. ولم يكن هذا الزحف عسكرياً فحسب، كزحف الحروب الصليبية من قبل، بل كان زحفاً عسكرياً سياسياً اجتماعياً ثقافياً.

ووجه العالم الإسلامي بهذا الزحف الحاقد الطامع، وهذا الغزو المنظم، فقاوم كثيراً، ووقف موقفاً صلباً من الحضارة الغازية، في مختلف أقطاره، ولكنه لم يستطع أن يحرز النصر.

كان هناك انحطاط عام في كل ميدان من ميادين الحياة الإسلامية ـ نتيجة لبعد المسلمين عن الإسلام الصحيح فهماً وتطبيقاً ـ أجل كان هناك تخلف في العلم، وجمود في التفكير، وركود في الفقه والتشريع، وقصور في التربية والتوجيه، وفساد في الإدارة والحكم، وكان العدو الزاحف المنتصر متفوقاً في هذه المجالات، فبهر أبصار الكثيرين، وخلب ألبابهم، فبدأوا يسيرون في دروبه، ويتبعون سننه، شبراً بشبر وذراعاً بذراع.

وبدأ العدو الزاحف الماكر يخطط للاستيلاء على شعوب هذا العالم الإسلامي بعد أن استولى على أرضه، فقد علم أن الاستيلاء على الأرض ليس معناه الاستيلاء على أهلها، إن الاستيلاء على الأرض يتم بقوة السلاح، أما الاستيلاء على البشر فلا يجدي فيه الأسلحة ولا تغني الجيوش والأساطيل. فلا بد ـ إذن من عمل منظم «لتغريب» العالم الإسلامي حتى يقبل الاستعمار الغربي، ويهضم حضارته، ويتتلمذ على أهله. ولهذا رسم خطته بدهاء ومكر، وشرع

---

(١) الملك، آية ١٤.

ينفذها بأناة وصبر. لم يصنع ما كان يصنع الفاتحون الأولون من تدمير المساجد أو تحريق المصاحف. أو إلقاء الكتب في البحار والأنهار.

لقد صمم الغرب الصليبي الزاحف أن يهدم ويدمر، ولكن بأسلوب غير أسلوب التتار والصليبيين القدماء، لقد اتجه إلى تدمير العقائد والأفكار، وهدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتقاليد، بمعاول خفية لا تراها الأعين بسرعة، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليب ماكرة لا تثير الشعوب، ولا تغضب الجماهير، وبهذا نجح في قتل الشعوب ولكن بغير إطلاق الرصاص وضرب السيوف، بل بطريقة السم البطيء، يوضع في الدسم والحلوى!

لم يكن من هم المستعمر الدخيل في أول الأمر أن يوجّه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه، ويشككه في منهجه الإلهي، فيهيجه على حكمه، ويحرضه على مقاومته، بل ترك الشعوب في غفلاتها، ووجه أكبر همه إلى تكوين قادة للمستقبل، قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويربيهم في أحضانه، ويغذيهم بثقافته وأفكاره، ويغرس فيهم الخضوع ـ عن طواعيه ـ لنظمه وتقاليده، والتقديس لمناهجه وفلسفته.

إن صناعة هذا الجيل الذي سيقود السفينة فيما بعد، ويقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع، كانت أهم ما عني به الاستعمار الخبيث، وكان النجاح في صناعته أعظم نصر حققه في المعركة بينه وبين الشرق الإسلامي. منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم.

يقول الأستاذ «برنارد لويس» رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الشرقية في جامعة لندن:

«لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهدداً فيها في الوقت نفسه من الشرق والغرب، غير أن الإسلام تغلب عليها، واجتازها دون أن يتأثر. جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحوّلوا إلى مسلمين مؤمنين، وتمثلهم المجتمع الإسلامي الكبير فانصهروا في بوتقته، وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الإسلام التي أقامت

مجتمعاً متدهوراً كاد يفنى اجتماعياً وسياسياً. وبهذه القوة والحيوية تمكن الإسلام من الصمود، بل من دحر غزوات أعدائه الصليبيين الذين جاؤوه من الغرب».

«ثم واجه الإسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأحدث وأخطر، فلقد سحق الشرق الأوسط الإسلامي مرتين واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح، وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الإسلامية القديمة الأصول، فإنهم (لغّموا) ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم، وهكذا حوّلوا وجهتهم نحو اتجاهات جديدة.

أولى هاتين اللطمتين كانت الغزو المغولي في أواسط آسيا التي حطمت الخلافة القائمة، وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة، قلب العالم الإسلامي لحكم غير إسلامي.

أما اللطمة الثانية فهي تأثير الغرب الحديث...»[1].

والذي يبدو أن اللطمة الثانية كانت أقصى وأشد خطراً من الأولى، فقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يؤثر في التتار المنتصرين ويجذبهم إلى ساحته، فتقع المعجزة الإسلامية، ويدخل التتار في دين الله أفواجاً، ويسجل التاريخ ـ مرة أخرى ـ اعتناق الغالبين دين المغلوبين!

أما اللطمة الثانية فما زال العالم الإسلامي كله يقاسي آلامها، ويعاني آثارها إلى اليوم.

وسائل التأثير الغربي في الشرق الإسلامي:

فما هي الوسائل التي انتصر بها الغرب على شرقنا المسلم، فنسي نفسه، وجهل قدره، وفقد شخصيته، وبات ـ في ظاهر أمره ـ تلميذاً خاشعاً أمام حضارة الغرب؟

---

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ٣٢، ٣٣ تعريب الدكتور نبيل صبحي.

الوسيلة الأولى: التعليم والتربية:

والجواب: أن الغرب المستعمر الزاحف قد اتخذ التعليم والتربية وسيلته الأولى في التأثير والتغيير الذي ينشده، وقد ركز نشاطه في هذا الجانب على كل الجبهات والمستويات، سالكاً إلى غايته طرقاً شتّى:

البعثات إلى الغرب:

أولاً: طريق الطلاب الذين يوفدون في بعثات إلى ديار الغرب، ليحصلوا العلوم الأوروبية ـ الحديثة فيما يزعمون، والتي اقتبسوا جذوتها الأولى من المسلمين في الأندلس وغيرها ـ وقد حرص المستعمر المتحكم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، لأنها هي التي تصنع للإنسان أفكاره وقيمه وموازينه، وذوقه واتجاهه وسلوكه، هذا مع أن الشيء الذي كانت تحتاج إليه البلاد في ذلك الحين ـ قبل كل شيء ـ هو العلوم المحضة والعلوم التطبيقية، التي يترتب على التفوق فيها الرقي الصناعي، والنمو العمراني، والتقدم العسكري، والازدهار الاقتصادي. ولكن المستعمرين الماكرين أصروا على أن يحتكروا هم هذا الجانب الهام، لتظل البلاد في حاجة دائمة إلى خبرائهم ومعوناتهم، ولتظل سوقاً مفتوحة لبضائعهم ومصنوعاتهم، فتؤخذ منها «المواد الخام» بأبخس الأثمان، ثم ترد إليها سلعاً تباع بأغلى الأسعار.

ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب، يذهبون إليه شرقيين مسلمين ويعودون ـ إلاَّ من عصم الله ـ «متغربين» علمانيين «لا دينيين» لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم، ونظرتهم إلى الدين وإلى الحياة وإلى الناس، وإلى الماضي وإلى الحاضر، وإلى النظام والشرائع وإلى الآداب والتقاليد. وبدا ذلك واضحاً في سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم، وفيما يكتبون وينتجون في ميدان الفكر والثقافة والتوجيه.

المدارس التبشيرية والأجنبية:

ثانياً: طريق المدارس والمؤسسات التبشيرية والأجنبية التي كان الاستعمار الغالب يرعاها رعاية الأب الحاني لولده، ويقدم لها كل عون مادي وأدبي، على حين يضيّق الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية، وخاصة تلك التي تحافظ على عقيدة الأمة وثقافتها وتراثها.

لقد زرع الاستعمار في كل بلد مئات المدارس التبشيرية التي تأخذ الطفل منذ نعومة أظفاره عجينة لينة طيعة، فتصوغه كما تريد وتنشئه كما تهوى، وتبعده عن الإسلام بقدر ما تقربه من النصرانية، وتحببه في حضارة الغرب بقدر ما تبغضه في حضارة الشرق.

وقد صرحت المبشرة «آنا ميلجان» عن هدف هذه المدارس ومهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت:

«إن المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي، وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة أوطانهم».

وتقول أيضاً عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة:

«في كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن» «باشوات وبكوات» وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي. وليس ثمة طريق إلى دحض الإسلام أقصر من هذه المدرسة»[1]!!

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية في جميع بلدان المسلمين.

يقول المستر بثروز رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت:

---

(١) انظر: كتاب: «أباطيل وأسمار» للأستاذ محمود شاكر و «التبشير والاستعمار» للدكتورين مصطفى الخالدي وعمر فروخ ص ٦٧ وما بعدها ط. ثانية، وراجع أيضاً كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» تعريب الأستاذين مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب.

«لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان».

ولم تقف جهود التبشير عند المدارس الثانوية والابتدائية ورياض الأطفال، بل خطوا خطوة أخرى نحو إنشاء الكليات والجامعات والمعاهد العالية، لتوجيه قادة المستقبل كما يشتهون ويحبون. وقد عرف الشرق الإسلامي عدة مؤسسات من هذا النوع.

«وإن من أشهر المؤسسات التعليمية في الشرق العربي جامعة القديس يوسف في لبنان، وهي جامعة بابوية كاثوليكية، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية، والجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت تسمى من قبل «الكلية السورية الانجيلية»، ثم كلية بيروت وقد أنشئت عام ١٨٦٥ وهي جامعة بروتستنتية.

والكلية الأمريكية بالقاهرة التي أصبحت فيما بعد «الجامعة الأمريكية» وقد كان القصد من إنشائها أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر.

وكلية روبرت في «استنبول» التي أصبحت تسمى «بالجامعة الأمريكية» هناك.

والكلية الفرنسية في «لاهور» وأسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامي الخالص في تكوينه في شبه القارة الهندية.

ومن المنشور الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٠٩، رداً على احتجاج الطلاب المسلمين ـ لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة ـ يتضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها.

ونص هذه المادة ما يلي:

«إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي. هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه. ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر

إذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء، ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من موارده، فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ... وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه»!![1]

المدارس الحديثة:

ثالثاً: طريق المدارس الحديثة، التي تقوم فيها الدراسة على أسس غريبة خالصة، والتي أخذ الاستعمار يوجهها ويراقبها، ويضع لها أهدافها ومناهجها التي يرضى عنها، ويصنع لهذه الأهداف والمناهج الكتاب الذي يخدمها، والمعلم الذي يتمثلها وينقلها من السطور إلى الصدور، والإدارة التعليمية التي تشرف على تنفيذها.

وقد يكون هذا التوجيه والإشراف الاستعماري أمراً مكشوفاً مباشراً، كوضع القسيس «دنلوب» الانجليزي، مستشاراً لوزارة المعارف في مصر، في عنفوان عهد الاحتلال البريطاني، وقد يكون الاشراف من وراء الستار، عن طريق القادة الذين صنعهم من قبل على طريقته، وطبعهم على ما يحب ويرضى.

وقد حازت هذه المدارس المدنية رضا المبشرين وتأييدهم خفية وجهراً، رغم مالها من طابع علماني، وقرأنا لكثير منهم الثناء عليها والتشجيع لها.

يقول المبشر «جون تكلي»:

«يجب أن نشجع إنشاء المدارس، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي. إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية... إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً[2]»

---

(١) من كتاب المبشرون والمستشرقون في موقعهم من الإسلام ص/٩، ١٠ للدكتور محمد البهي. وانظر: التبشير والاستعمار الفصل الرابع ص ٩٠ وما بعدها.

(٢) التبشير والاستعمار ص ٩٨.

ومعنى هذا أنها تشكك أيضاً في الانجيل والتوراة، التي يؤمن بها المبشرون ويدعون إليها فيما زعموا. فما الذي يفيد المبشرين إذا تزعزع اعتقاد الناس بالله والآخرة، وتزلزل إيمانهم بالكتب المقدسة، أو لم يكونوا من عملاء الاستعمار ومطاياه؟!

وهذا يدلنا بوضوح على أن غاية هؤلاء المبشرين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس، وأنهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة، فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا أول ما يتجهون إلى الملحدين والماديين الذين يكوّنون معظم السكان في أوروبا. أو اتجهوا إلى الشعوب الوثنية، بدل أن يتجهوا إلى أعظم أمة مؤمنة موحدة في الأرض، وهي أمة الإسلام.

ومما يؤكد هذا قول القس الشهير «زويمر» في وصاياه للمبشرين:

«ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وتحرير النساء».

وليست علوم الأوروبيين مما نزل على المسيح، ولا تحرير النساء ـ بالمفهوم الغربي ـ مما جاء في الانجيل الذي يقول: «من نظر بعينه فقد زنى».

الهدف الاستعماري من وراء التعليم:

لم يكن هدف الاستعمار التبشيري، والتبشير الاستعماري من وراء هذه المؤسسات والأساليب إدخال المسلمين في الديانة النصرانية. فقد وجدوا ذلك مستحيلاً، ولكن كان أكبر همهما زحزحة المسلمين عن الإسلام لقيادة الحياة المعاصرة، وتنظيم المجتمع المتحضر، وتوجيه الدولة الحديثة، وعزلهم عن الثقافة الإسلامية الأصيلة، مع إبراز وجه الحضارة الغربية جذاباً فاتناً، مبرءاً من كل عيب، منعوتاً بكل جمال وكمال.

كان هم الاستعمار والتبشير ألا يفكر المسلمون في هذا الشرق بعقل المسلم

الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبالقرآن منهاجاً، وبمحمد رسولاً.. بل بالعقل الذي صنعوه هم لهم، وسجنوهم فيه، وراء قضبان محكمة، غير منظورة.

وهذه هي الخطورة الكامنة في نظام التعليم الذي فرضه الغرب على هذا الشرق. تلك الخطورة التي صرح بها بعض رجال الغرب أنفسهم. فهذا اللورد «ميكالي» الذي كان رئيساً للجنة التعليمية في الهند سنة ١٩٣٥، وهي التي قررت جعل اللغة الانجليزية أداة التعليم لأهل الهند، بدل اللغات الشرقية الأخرى، يقول في تقرير له: «يجب أن ننشىء جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين الملايين من رعيتنا، وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم. وانجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير!»[١].

ولقد أدرك المسلمون الواعون في كافة البلاد الإسلامية هذه الخطورة، ونددوا بها، وأنكروا هذا التعليم أشد الإنكار.

ففي شبه القارة الهندية نجد شاعراً إسلامياً مثل «أكبر حسين» الملقّب بـ «لسان العصر» يحمل عليه حملة عنيفة، بأسلوبه اللاذع، فيقول في بعض شعره ما ترجمته:

«يا لبلادة فرعون، الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد!! ولو فعل ذلك لم يلحقه العار، وسوء الأحدوثة في التاريخ!»[٢].

وكان بعد ذلك الدكتور إقبال الذي خاض لجة هذا التعليم، وغاص في أعماق بحاره، ولكنه خرج سالماً إلى حد بعيد، بل ـ كما قال الأستاذ الندوي ـ جاء معه بدرر كثيرة، وازداد إيماناً بخلود الإسلام.

يقول إقبال: «إن التعليم (يعني على الطريقة الغربية) هو «الحامض» الذي

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي نقلاً عن «تاريخ التعليم» لمؤلفه ميجر باسر ص ٨٠».

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣.

يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكوّنها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية. وهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة من التراب»[1].

موقف الأزهر في مصر:

وكذلك وقف رجال الأزهر في مصر من التعليم الغربي الحديث، الذي فرضه المستعمر على المدارس الوطنية ـ موقف الجفاء والمعارضة، لما رأوا فيه من بذور فكر غريب على الإسلام، وثقافة مجافية لروحه وتعاليمه وتوجسهم شراً من كل ما يجيء على أيدي هؤلاء الكفرة المستعمرين.

وهذا ما جعل اللورد لويد ـ المندوب السامي لبريطانيا في عهد الاحتلال ـ يشكو من هذا المعهد الناشز. الذي استعصى على سياسته الاستعمارية الماكرة فلنسمعه يقول في كتابه الذي ألّفه سنة **١٩٣٣**:[2]

«إن أهمية الأزهر ـ بوصفه مركزاً من مراكز الدعاية المعارضة لبريطانيا ـ كبيرة متعددة الإمكانيات. وقد أدرك الوطنيون ذلك، فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم، وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم».

ويرسم الطريق للتخلص من مقاومة هذا المعقل الإسلامي العتيد وتأثيره، فيقول:

«إن التعليم الوطني (عندما قدم الانجليز إلى مصر) كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي. وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة

---

(١) نفسه ص ١٨٤.

(٢) النص المنقول هنا من ترجمة الدكتور محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ صفحات ٢٨٨، ٢٨٩.

يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني، ولا يصيبون إلاَّ قدراً ضئيلاً جداً من مرونه التفكير والتقدير.

«فلو أمكن تطوير الأزهر عن حركة تنبعث من داخله هو، لكانت هذه خطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن نتصور أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة.

«ولكن إذا بدا مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه، فحينئذٍ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني (المدني) الذي ينافس الأزهر، حتى يتاح له الانتشار والنجاح.

وعند ذلك يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين:

«فإما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي».

«على أن الخطة الأولى ـ التي تقوم على إصلاح الأزهر من داخله ـ لها نتيجة عظيمة الأهمية والفائدة. وإن لم تكن نتيجة مباشرة (أي في اللقاء مع المستعمر الغربي) وهي أنها تؤدي بالتدريج إلى اختفاء التعصب الديني الذي أخّر مصر (بحسب زعمه) زمناً طويلاً».

«أما الخطة الثانية (وهي الانصراف إلى التعليم المدني) فإن تأثيرها المباشر (أي في اللقاء مع المستعمر) أقوى في إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه، من إقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل»[1].

ولما استعصى الأزهر على التطور المطلوب حينذاك، كان لا بد أن يموت أو يختفي كما قال لسان الاستعمار في مصر. وعزل الأزهر فعلاً عن الحياة، وعزل خريجوه عن التأثير في المجتمع، وبخسوا حقهم في الوظائف والأعمال[2]،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قرر اللورد «كرومر» المندوب السامي للاحتلال البريطاني في مصر في كتابه عن عباس الثاني ص ٦٧: أن المسلم غير المتخلق بالأخلاق الأوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن =

وشجع الاستعمار وأعوانه ـ بطرق خفية ـ الشيوخ الجامدين على دعاة الإصلاح المعتدلين.

واتسع نطاق التعليم المدني ـ كما يسمى ـ تحت إشراف المستعمر وتوجيهه، فتخرجت فيه أجيال لا تعرف من الإسلام إلاَّ اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، ولا من تاريخ المسلمين إلاَّ الفتن والحروب.

الوسيلة الثانية: الصحافة والإعلام:

ولم يقتصر نشاط الاستعمار الغربي على ميدان التعليم بمختلف طرائقه وأساليبه بل تعداه إلى ميدان آخر، لا يقل خطراً عن التعليم ـ إن لم يزد عليه ـ في قوة تأثيره وسعته.

ذلك هو ميدان «الصحافة» التي لا يقيدها ما يقيد المدرسة من مناهج ورسميات، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ. إنها وسيلة شعبية ناجحة تستطيع أن تغير بموضوعاتها وأساليبها العقول والأفكار، والقيم والموازين، وأن توجه الرأي العام إلى ما تريد من مفاهيم جديدة، وأن تضعها في الإطار المشوق وتحتال على الناس بتثبيتها في فكر القارىء وقلبه، بالمقالة حيناً، وبالخبر أحياناً، وبالصورة تارة، وبالقصة تارة أخرى وباللقاءات والتحقيقات الصحفية. وبغير ذلك من الأساليب التي أتقنها المحترفون المهرة في التضليل والتدجيل.

لقد أدرك المستعمرون ما لهذه الوسيلة من خطر. فاستخدموها استخداماً ناجحاً في غزوهم الفكري المنظم لأمة الإسلام.

يقول مؤلفا «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»[1] نقلاً عن المصادر التبشيرية الأجنبية:

= المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية»! وهذا ما حرص الاستعمار على تنفيذه وما وقع بالفعل بكل دقة!

(١) ص ٢١٣ الطبعة الثانية.

«إن الصحافة لا توجه الرأي العام فقط، أو تهيؤه لقبول ما ينشر عليه، بل هي تخلق الرأي العام».

«وقد استغل المبشرون الصحافة المصرية ـ على الأخص ـ للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر. لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف إما مأجورة في أكثر الأحيان أو بلا أجرة في أحوال نادرة».

ويقول المستشرق الانجليزي المشهور «جب» في كتابه «وجهة الإسلام» متحدثاً عن أهمية الصحافة في مجال الغزو الفكري[1]:

«والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفي، فليست هي في حقيقة الأمر إلاَّ الخطوة الأولى في الطريق، لأنها لا تغني شيئاً في قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية. وللوصول إلى هذا التطور الأبعد ـ الذي بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية ـ يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأي عام. والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة. ويقرر «جب»: أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي.

كما يقرر أن مديري الصحف اليومية ينتمون في معظمهم إلى «التقدميين»! ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية.

ويقول: إنهم لا يلعبون دوراً مهماً في تشكيل الرأي العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب، ولكن صحفهم تحتوي كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية في أوروبا، وعلى مقالات مترجمة من الصحف الأوروبية. ثم هم في الوقت نفسه يقفون الرأي العام على ما يجري في الغرب من أحداث، وما استحدث من آراء، مبينين صدى ذلك في بلاد الشرق.

ويستعرض الكاتب بعد ذلك صحافة العالم الإسلامي مشيراً إلى ما بينها من

---

(١) انظر: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» ص ٢٠٢.

فروق فيقول: إن الصحافة التركية هي بطبيعة الحال وطنية لا دينية. وهي لا تجرأ على أن تكون دينية، لأنها مراقبة من الحكومة مراقبة شديدة، أما الصحافة المصرية فهي على العكس من اتجاه الأولى الثوري ـ تتطور في بطء وتعرض طائفة من الآراء الجديدة، وهي على كل حال لا دينية في اتجاهها».

الوسيلة الثالثة: الغزو الاجتماعي:

وفوق هاتين الوسيلتين: وسيلة التربية والتعليم. ووسيلة الصحافة والإعلام اتخذ الغرب الزاحف وسيلة أخرى، هي الغزو الاجتماعي المباشر، بإدخال العادات والتقاليد الغربية والأذواق الغربية في حياة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، واستغلال الوسيلتين السالفتين في تحبيب ذلك إلى الأنفس، وإضفاء نعوت الرقي والتمدن على كل من ينسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية، ويمشون في ركاب غاصبيهم تابعين مقلدين حذو النعل بالنعل.

يقول الشهيد حسن البنا في تصوير هذا الغزو:

«وقد عمل الأوروبيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية التي امتدت أيديهم إليها، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة. وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي إحكاماً شديداً، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا. أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم وسهلوا لهم ذلك وهوّنوا عليهم واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون وأن يستأثروا ـ دون الأهلين ـ بالأرباح الطائلة والثروات العظيمة، وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخاصة في أقوى بلاد الإسلام، وجلبوا إلى هذه

الديار نساءهم الكاسيات العاريات، وخمورهم ومسارحهم، ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهم، ورواياتهم وخيالتهم، وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزيّنوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء وذوي الرأي فيهم وأهل المكانة والسلطان».

«ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب، طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف، وتغالت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهذه الحضارة الأوروبية والتبرم بصبغتها الإسلامية حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية، وتبعت الأوروبيين ـ في عنف قاس ـ في كل ما يصنعون[1]. وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان فأطاحت تلك المحاولة بعرشه. وازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت، حتى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه لا سبيل إلى الترقي إلاَّ بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب. وأخذت تنتقل في سرعة وقوة من مصر إلى ما جاورها من البلاد حتى وصلت إلى أقصى المغرب»[2].

نتائج وآثار:

كان الغرب الزاحف يقوم بكل هذا النشاط في ميادين التعليم والتربية والصحافة والتوجيه، والغزو الاجتماعي. ولم يكن هناك على الجانب الآخر نشاط مثله يقابله ويقاومه، فقد كان القائمون على الفكر الإسلامي في أول الأمر،

---

(١) الواقع أن الشعب التركي المسلم لم يرض عن هذا الاتجاه، بل قاومه مقاومة شديدة. ولكنه غلب على أمره بالحديد والنار،، وبمساندة القوى الخارجية، وإنما الذي تبنى هذا الاتجاه فئة قليلة منحرفة استغلتها الماسونية واليهودية العالمية والصليبية لتحطيم قلعة الإسلام المتمثلة في الخلافة العثمانية، التي كانت تمثل آخر مظهر للتكتل على أساس العقيدة الاسلامية.

(٢) من رسالة «بين الأمس واليوم» للشهيد حسن البنا.

يعيشون ـ إلاَّ قليلاً منهم ـ في فراغ وذهول عما يحيط بهم من أحداث العالم وتطوراته. كان الجمود قد شل تفكيرهم، والجدل اللفظي قد التهم أوقاتهم وجهودهم، والتقليد الذي أوجبوه على أنفسهم قد حرمهم من البحث في حل لما يمور به المجتمع من مشكلات، وجواب لما يطرحه من أسئلة واستفتاءات، ولما بدأوا يفيقون كان الاستعمار قد سد في وجوههم الأبواب، وجردهم من كل طاقة للعمل والتأثير، ووضعهم في منجم مغلق لا يستطيعون أن يخرجوا منه إلى الناس والحياة.

كانت النتيجة المنطقية للغفلة هنا والنشاط هناك، أن فتنت فئة من قومنا بالعدو الغاصب، وولعوا بتقليده ولع المغلوب دائماً بتقليد الغالب، وأصبحوا يستوحون في تفكيرهم وسلوكهم، المثل الغربية، والقيم الغربية، والمفاهيم الغربية.

يتحدث الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله عن افتتان الشرقيين (وكانت هذه الكلمة تعني المسلمين) بمظاهر الحضارة الغربية في مختلف نواحيها ثم يقول: «اجتمعت هذه الفتن كلها على الشرق (يعني العالم الإسلامي) فزلزلت إيمانه، وحيّرت وجدانه، وأزاغت بصره، وغزت عقله وقلبه، بما أخذ عليه المسالك، فأضل الشرقيون أنفسهم، فإذا هم أجساد تنبض بقلوب الغرب، وتفكر بعقوله، وإذا هم مستسلمون لكل ما تطلع به أوروبا، منقادون لكل ما تأمرهم به، متهافتون على كل ما اتصل بها، ثم إذا هم أولاء مقلدون، يحقرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضارتهم وتاريخهم. إلاَّ أن تعظم أوروبا أباً من آبائهم أو تعجب بمأثرة من مآثرهم فيعتدوا بها».

«والخلاصة أن الشرقيين يتلقون عن الغربيين أفكارهم وعقائدهم، كما يأخذون منسوجات القطن والصوف، ومصنوعات الحديد والنحاس، وأصناف الأحذية»[1].

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ١٩١ ـ ص ١٩٣. وهذا النص من مقال للكاتب في ملحق «السياسة» الأدبي سنة ١٩٣٣.

وقد كان المستشرقون المعنيون بهذا الشرق المسلم، يراقبون هذا التأثير ومداه ومظاهره، بكل يقظة ودقة، فقد علموا أن عاقبته ليست بالأمر الهين في سير الأمور ومجرى التاريخ.

لنسمع واحداً من هؤلاء المراقبين الأيقاظ وهو البروفسور «جب»[1] يحدثنا عن ذلك في كتاب «وجهة الإسلام» حيث يذكر عدة أمثلة ومظاهر خارجية لتأثير الغرب في العالم الإسلامي، يراها شيئاً ثانوياً غير ذي قيمة، ثم يعقب على ذلك فيقول ـ وفقاً لترجمة الدكتور محمد محمد حسين ـ[2].

«الواقع أننا إذا أردنا أن نعرف المقياس الحقيقي للنفوذ الغربي، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة، والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان هذه الدول الإسلامية فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها».

ويشير «جب» إلى أهمية التعليم والصحافة في هذا الصدد فيقول:

«والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي الأساس الأول في كل ذلك هو أن يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي، هذا هو السبيل ولا سبيل غيره».

ولا شك أن «جب» قد قر عيناً بجريان التعليم في العالم الإسلامي على ما

---

(١) كبير المستشرقين الانجليز المعاصرين، وكان مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية وعضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومن كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية، وله كتب وبحوث عدة في جوانب إسلامية، في كتابته عمق وخطورة. انظر رسالة «المبشرون والمستشرقون» للدكتور محمد البهي ص ٢٤.

(٢) في كتابه «الاتجاهات الوطنية» ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها.

يحب ويرضى من الأسلوب الغربي والمبادىء الغربية والتفكير الغربي. وتأثير ذلك على عقول القادة والموجهين.

ثم ينتقل المستشرق إلى الحديث عن الصحافة وتأثيرها، بما نقلناه عنه من قبل.

يقول الدكتور محمد م. حسين:

يلاحظ «جب» أن النشاط الثقافي والتعليمي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين ـ من غير وعي منهم ـ أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد. ثم يعقب على ذلك بقوله: وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار.

ثم يفصل الكاتب في السطور التالية ما تنطوي عليه هذه الجملة القصيرة الخطيرة من دلالات، فيقول: الواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلاَّ قليلاً من قوته وسلطانه، ولكن الإسلام ـ كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية ـ قد فقد مكانه. فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه. وهي ـ في كثير من الأحيان ـ تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ولكنها تشق طريقها، بالرغم من ذلك. إلى المجتمع الإسلامي بقوة وعزم.

«فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس، وللفلاّح اتجاه سياسي. ولم يكن له إلاَّ الأدب الديني. ولم تكن له أعياد إلاَّ ما جاء به الدين. ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلاَّ بمنظار الدين. كان الدين هو كل شيء بالقياس إليه. أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود وتعددت ألوان نشاطه الذي لم يعد مرتبطاً بالدين. فقد أصبحت له ميوله السياسية، وهو يقرأ ـ أو يقرأ له غيره ـ مقالات في مواضع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين. بل إن وجهة نظر الدين لا تناقش فيها على الاطلاق. وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل، ولكنه مرتبط في

المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها، ولكنه يعرف ـ على كل حال ـ أنها ليست مأخوذة من القرآن. وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحية، فضلاً عن حاجاته الاجتماعية الأساسية، بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه. ولذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً، حتى انحصرت في طقوس محدودة. وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه. وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين. وكان الذين مضوا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد. ولم يعد من الممكن الرجوع فيه.

«وقد يبدو الآن من المستحيل ـ مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الإقتباس من الغرب ـ أن يصدّ هذا التيار أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية.

ويتساءل جب: إلى أي مدى أصبح العالم الإسلامي غربياً؟ ويجيب على ذلك مستعرضاً نفوذ الثقافة الغربية في العالم الإسلامي بلداً بلداً، فيقول: إن تركيا قد انقلبت إلى بلد غربي كأعنف ما يكون الانقلاب. أما في شبه جزيرة العرب فإن النفوذ الغربي لم يستطع أن يضع قدمه بعد ـ وفي شمال أفريقيا، بدأت حركة التغريب وهي ماضية في طريقها وإن كان أثرها أبرز في تونس. أما في مصر فهي تتطور في هدوء بعيد عن العنف، ولكنها تتقدم تقدماً واضحاً في هذا الطريق. أما في العراق وسوريا فهي تتبع خطوات مصر، بينما تتبع إيران خطوات تركيا، وإن كانت أكثر منها اعتدالاً وتوسطاً. أما أفغانستان فقد تراجعت في هذا السبيل بعد تجربة الملك أمان الله خان الذي فقد فيها عرشه».

ويمضي المؤلف على هذا النحو في تتبع ما أحدثت الحضارة الغربية بين المسلمين في روسيا السوفياتية وفي الهند وفي أندونيسيا وفي أفريقيا. ويخلص من ذلك إلى أن نجاح التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي وعلى الشباب منهم خاصة.

ثم يقول: «ومن ثم نستطيع أن نقول ـ حسب سير الأمور ـ إن العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً في كل مظاهر حياته، ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست في الحسبان فتغير اتجاه التيار».

الدعوة إلى التغرّب:

كان للغزو الفكري الغربي المنظم المخطط، الذي تساندت فيه كل القوى الاستعمارية واستخدمت فيه كل الوسائل والأساليب ـ آثاره ونتائجه الخطيرة في حياة المسلمين، تلك الآثار التي بدأت تبرز وتتسع يوماً بعد يوم.

صحيح أن الفكر الاستعماري لم يستطع أن ينفرد تماماً بالتوجيه، وأن يستقل استقلالاً مطلقاً بالتأثير، فقد كان الفكر الإسلامي المتغلغل في أعماق الأمة يتحداه ويقاومه على الرغم من ضعف إمكاناته، ومن تضييق الخناق عليه. إلاَّ أن الغلبة والتأثير الأقوى والأوسع كان للفكر الدخيل، المسلح بالدهاء والمكر، وبالعلم والمال، والمستند إلى سلطان القوة، وقوة السلطان، والذي كان يملك في قبضته أجهزة التعليم، ووسائل الإعلام. وكان أخطر نتائجه ولا شك هو شيوع التبعية الفكرية للغرب. والعبودية الذليلة لكل ما يصدر عنه من مبادىء وقيم، ومناهج وأنظمة، وأخلاق وتقاليد، وأفكار ومفاهيم.

وكان من مظاهر هذه العبودية بروز أناس يدعون إلى اتباع الغرب في كل شأن من شؤون حياته الفردية والأسرية والاجتماعية، المادية والروحية والثقافية.

وبرز من بين ظهراني المسلمين من يدعو ـ في صراحة حيناً، وبالتواء أحياناً ـ إلى اطّراح الإسلام، وشريعة الإسلام، وثقافة الإسلام، وحضارة الإسلام.

رأينا ذلك في الهند، ورأيناه في تركيا، ورأيناه في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام.

رأينا في الهند مثل السيد أحمد خان مؤسس الكلية الإسلامية الإنجليزية، التي سميت فيما بعد جامعة «علي كرْه» ـ يدعو إلى السير وراء الحضارة الغربية

وأخذها بحذافيرها، وقال: إنه لا بد للمسلمين أن يقبلوا حضارة الغرب بتمامها، حتى يعدوا في الشعوب المتمدنة والمثقفة، ولا تزدريهم أعين الأمم المتحضرة!

لم يدع أحمد خان إلى اقتباس الجانب العلمي الصناعي من حضارة الغرب، الذي هو سر قوة الغرب ومبعث نهضته وتقدمه. وهو الجانب الذي كانت تحتاج إليه الهند وغيرها من البلاد الإسلامية. بل كان أكثر ما عني به ودعا إلى تعلمه وأخذه هو الجانب الآخر من الحضارة: جانب الآداب والعلوم الإجتماعية. حتى إنه في بعض الأحيان عارض تعليم الصناعات والعلوم معارضة شديدة، وكتب في هذا الموضوع مقالات عنيفة اللهجة مريرة النقد!![1]

ورأينا في تركيا مثل «ضياء كوك ألب» الأديب التركي الذي يعتبر أحد المؤسسين الفكريين لتركيا الحديثة يقول: «علينا أن نختار إحدى الطريقتين: إما أن نتقبل الحضارة الغربية، أو نظل مستعبدين لقوى الغرب، لا بد أن نختار أحد الأمرين».

وإنا لنعجب من هذا المنطق الذي يقول للأمة: إنسلخي من دينك وتاريخك وشخصيتك حتى لا تستعبدي للأجنبي، وأي استعباد أشد وأدهى من انسلاخها من ذاتيتها، واتباعها لهذا الأجنبي نفسه، وذوبانها فيه؟

ولو كان مفكراً أصيلاً، ما رضي لنفسه ولا لأمته بالتبعية والانصهار في خصومها الطامعين فيها، ولو كان مسلماً حقاً لرفض كل منهج غير منهج الله الذي هدى إليه أمته، ولم يقبل أن يبيع دينه وملته ليتبع ملة اليهود أو النصارى، فيرضوا عنه، ويثنوا عليه.

وما أروع القرآن وهو يجلي هذا الموقف إذ يقول:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) انظر في تقويم حركة أحمد خان: الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي ص ١٩ ـ ٢٥ والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٨٢ ـ ٩٢.

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾»[1].

«وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾»[2].

ومن العجب أن دعاة التبعية والتقليد للغرب كانوا يسمّون أو يسمون أنفسهم (المجددين) وتسمى حركتهم حركة التجدد أو (التجديد) وكانت المعركة الفكرية بين دعاة الجديد ودعاة القديم على أشدها في تركيا وفي العالم العربي.

وكان لحركة التجديد في مصر مظاهر كثيرة.

وكانت أكثر مظاهر الحركة تطرفاً ما كانت ترويه الصحف عما يجري في تركيا باسم تجديد الإسلام، في عهد الاتحاديين ثم في عهد الكماليين، أو «الإسلام الجمهوري»، كما سمته بعض الصحف.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكرته مجلة «المنار»[3] عن بعض ما جاء في كتاب قوم جديد» التركي من اعتبارهم الصلاة والصيام والحج والزكاة والعمل بفقه الأئمة الأربعة، هو دين قدماء المسلمين، الذين يعبر عنهم الكتاب بكلمة «قوم عتيق». في مقابل ذلك يصف الكتاب أركان دين «قوم جديد» وهي: العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة، والجهاد (تحت قيادة رجال جمعية الاتحاد والترقي!).

وما زال الخرق يتسع ودعاة التبعية للغرب يرتفع صوتهم ويمتد نفوذهم. ويكتبون عن أفكارهم بكل صراحة، بل وقاحة.

كان من أبرز الذين دعوا ـ في العالم العربي ـ إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه في الخير والشر الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

فهو يرى في هذا الكتاب أن سبيل النهضة «واضحة بينة مستقيمة ليس فيها

---

(١) البقرة، آية ١٣٥.

(٢) البقرة، آية ١٢٠.

(٣) عدد شوال سنة ١٣٣٤.

عوج ولا التواء. وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ونكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرّها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب»[1] «وأن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوّم الأشياء كما يقوّمها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»[2].

وهو يزعم في كتابه أن المسلمين فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة، وهو «أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية، قبل أن يقوما على شيء آخر. وهذا التصور هو الذي تقوم عليه الحياة الحديثة في أوروبا، فقد تخففت أوروبا من أعباء القرون الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية، ولا على تقارب اللغات والأجناس. .»[3].

ويقول:

«فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا، واستشعرنا العزة والكرامة واستيقنا أنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر، ولا في الطبع ولا في المزاج، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين»!![4] وهكذا بلغت الدعوة إلى حد الفناء في الأوروبيين.

النصارى أجهر بالدعوة إلى التغرب الكامل:

وقد دعا إلى سلوك هذا السبيل نصارى ومسلمون، ولكن النصارى كانوا أسبق وأصرح وأجرأ، ولعل أبرز مثال لهؤلاء هو الكاتب المصري المسيحي المعروف «سلامة موسى» الذي كتب في هذا الموضوع عدة مقالات نشرت في خلال سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦ ثم نشرها في كتاب «اليوم والغد» بعد أن أضاف إليها

---

(١) مستقبل الثقافة فقرة ٩ ص ٤١.

(٢) نفسه ص ٤٤.

(٣) أيضاً ص ١٧، ص ١٨.

(٤) ص ٦٣.

مقالين آخرين سنة ١٩٢٧، يقول المؤلف في مقدمة كتابه بكل وضوح: «أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب. يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا»، ومعلوم أن مصر ليست من آسيا، ولكنه يريد الخروج من ثقافة الإسلام وحضارته وتعاليمه التي جاءت من آسيا.

يريد الكاتب «حرية المرأة كما يفهمها الأوروبي» كما يريد من الأدب «أن يكون أدباً أوروبياً ٩٩٪». ويريد من التعليم «أن يكون أوروبياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه» ويقول: نحن في حاجة إلى ثقافة أبعد ما تكون عن الأديان ولا بأس أن تعتمد على الترجمة إلى حد بعيد».

وهو يريد أن يعطل شريعة الإسلام في تعدد الزوجات وفي الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من إمرأة، ويمنع الطلاق إلاَّ بحكم محكمة»!!

وهو ينكر أشد الإنكار كل دعوة تنادي بالتعاون أو التقارب بين المسلمين، وتوثيق الروابط بينهم كما أمر الله، ويقول في ذلك بكل جرأة: «إن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا»؟؟!

والخلاصة أنه يدعونا إلى أن «نرتبط بأوروبا وأن يكون رباطنا بها قوياً، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها من اختراعات أو اكتشافات وننظر للحياة نضرتها، نتطور معها في تطورها الصناعي، ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي. ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيداً عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها».

ومن العجب أن يقول المؤلف في صراحة يحسد عليها: إن الأجانب يحتقروننا بحق ونحن نكرههم بلا حق».

وهو يدعو في غير مواربة إلى التعاون والاتفاق مع المستعمرين والمحتلين الإنجليز وهدفه من ذلك تصفية الرجعية في مصر، ويعني بالرجعية ـ ولعله أول من استخدم هذه الكلمة ـ القوى الإسلامية، كالأزهر الذي يمثل بقايا الثقافة الإسلامية، والمحاكم الشرعية التي تمثل بقايا القوانين الإسلامية، والأوقاف

والمساجد التي تمثل بقايا التقاليد والعبادة الإسلامية، والجماعات العاملة التي تمثل التطلع إلى دولة إسلامية ووحدة إسلامية وحضارة إسلامية.

يقول المؤلف الجريء: «أننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنّا لهم مصالحهم، وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية، فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها. فلنول وجهنا شطر أوروبا»[1].

ومثل سلامة موسى زميل له من نصارى لبنان، لا يقل عنه جرأة أو وقاحة، ذلكم هو «جميل معلوف» الذي يقول في كتابه «تركيا الجديدة» ما نصه:

«إن خلاص الشرق يتوقف على تفرنج الشرقيين بكل معنى الكلمة» ص ٣٤.

«لا عهدة شرعية تربطنا بأسلافنا... يجب أن نكون أبناء اليوم لا بقايا الأمس. كل جيل يجب أن يعمل لذاته وكل سلالة يجب أن تشترع لنفسها» ص ٤١.

واستناد الشرقيين على الدين في أحوالهم العالمية عمل عقيم يبعدهم عن محجة التقدم، لا بل إنني أجد بلاء الشرق كله من الأديان، ومصيبة الشرقيين من الأنبياء»!! ص ٩٦.

«وعلى كل حال فإذا اضطررت أن أختار لأبناء وطني واحداً من أمرين: الكفر أم التعصب. فأختار لهم الأول، به يتوحد مبدؤهم، فيكسبون الدنيا على الأقل» ص ٩٨.

«ولا بد أن يعقب هذا الانقلاب (أي الانقلاب الذي أطاح بالخلافة الإسلامية) السياسي الصغير ثورة أدبية عظيمة ضد المبادىء القديمة كلها. فيثور الابن على أبيه، والامرأة على زوجها، والخادم على سيده، والرعية على كاهنها وشيخها، ورجال الدين على كتبهم» ص ١١٢.

---

(١) للاستيضاح والتفصيل راجع «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» ج ٢ ص ٢٠٧ ـ ٢١٣ وعنه نقلنا الفقرات المذكورة.

«إن فصل الدنيا عن الدين أمر واجب لتقدم الشرق. وبدونه لا يستطيع الشرقي أن يدخل في دائرة المدنية ويتمتع بنفس الحرية الحقيقية» ص ١٤١[١].

مناقشة دعوة التغريب:

هذه هي دعوة عبيد الغرب من مسلمين ونصارى. دعوة التبعية المطلقة للحضارة الغربية، والذوبان الكامل فيها، وأخذ كل شيء منها، واستمداد كل قيمه، وكل مفهوم، وكل نظام، وكل تقليد منها: الخير والشر، والحلو والمر، والعلم والأدب، والمادة والفكر، والتصور والسلوك.

لم يفرق هؤلاء بين ما يصح اقتباسه وما لا يصح، وما يجوز استيراده وما لا يجوز. ولو أنهم نادوا باقتباس الجانب «العلمي» المحض، الذي ينشأ عنه رقي الصناعة وزيادة الانتاج، ونمو العمران، وازدهار الحياة المادية، ما رأينا بذلك بأساً ولا حرجاً. فإن العلم المحض ـ بطبيعته ـ عالمي لا دين له ولا جنسية. ومن انتفع بقانون ارشميدس لم يكن به يونانياً، ومن أخذ بنسبيه اينشتاين لم يصر امريكياً أو رأسمالياً. ومن اقتبس قانون الجاذبية لاسحق نيوتن لم يصبح به انجليزياً أو استعمارياً. كما أنه من اقتبس نظريات ومكتشفات جابر بن حيان في الكيمياء أو الخوارزمي في الجبر أو البستاني في علم المثلثات لم يصر بذلك عربياً ولا مسلماً!

إن الولايات المتحدة الأمريكية التي تتربع على قمة الرأسمالية، والاتحاد السوفياتي ـ البلاد الأم للاشتراكية العلمية ـ كل منهما قد استفاد من خبرة خصومهم ومحاربيهم الألمان في بحوث الذرة والفضاء بعد الحرب العالمية الثانية.

وأصبح العلم الذي خدم النازية الألمانية من قبل، يخدم الرأسمالية الأمريكية والشيوعية الروسية. وها هي كلتاهما تحاول أن تخطف الأسرار العلمية أو تختلسها من الأخرى إذا استطاعت، ولا ترى في ذلك خطراً ولا ضيراً. أما الذي تقف

---

(١) انظر: «تركيا الجديدة» لجميل معلوف.

كلتاهما في وجهه، فهو الاتجاهات الثقافية والأدبية التي تحمل فلسفة كل من البلدين، وتعبّر عن وجهته في الحياة، ونظرته إلى الفرد والمجتمع والكون والتاريخ.

لا حرج ولا بأس إذن من اقتباس العلم الطبيعي والرياضي ونحوه، وإنما الحرج والبأس في اقتباس الثقافة والتقاليد، والأفكار والمفاهيم. والقيم والموازين التي تتميز بها كل أمة عن غيرها. بل الواقع أننا حين نقتبس الجانب العلمي من الغرب لا نفعل شيئاً إلاَّ أننا نسترد بضاعتنا. فنحن أصحاب هذا العلم وأولى الناس به. فقد أخذ الغرب أصول هذا العلم ومنهجه منا كما اعترف بذلك بريفولت ودوهرنج ولوبون وسارتون وغيرهم.